عبقرية فرويد *

د. مصطفى زيور

تمهيد:

طلع علينا عام ١٩٥٠ بحدث هام فى تاريخ التحليل النفسى، فقد أتيح لبعض تلامذة فرويد اكتشاف مجموعة من الرسائل كتبها لصديق له يدعى " فليس " Fliess فيما بين سنة ١٨٨٧ وسنة ١٩٠٢ أى فى السنوات التى شهدت ميلاد التحليل النفسى، وسجل فيها خواطره ونضاله أثناء اكتشافاته الكبرى، فألقت ضوءا على حقبة فريدة فى تاريخ المعرفة.

ولا ريب أن هذه الرسائل وثائق لا تكاد تعرف لها نظيرا فى تاريخ البحث العلمى، فقلما يتاح لنا أن نعرف ما كان يدور بخلد الباحث أثناء محاولاته الكشفية وكيف تعثر ثم كيف قام من عثرته، وما الذى سدد خطاه بعد أن جانبه التوفيق، إن هذه الرسائل بمثابة صورة حية لاقتحامات الباحث العلمى، على أن أخطر ما فى هذه الرسائل أنها تبين لنا أن البحث فى ميدان التحليل النفسى يتميز بصفة لا مثيل لها فى ميادين البحث الأخرى، فالبحث فى أحوال النفس يقتضى من الباحث فحصا ونضالا فوق فحصه ونضاله مع الوقائع موضوع البحث يقتضى منه فحصا لذات الباحث، ومغالبة للنفس حتى يغلب عزوفها عن الحق والمعرفة. ذلك أن البحث فى أعماق شخصية الإنسان يتصل اتصالا وثيقا بشخصية الباحث نفسه ويرتد فى النهاية إليه، فكأن موقفه أشبه بموقف الرجل أمام المرآة لا يكاد ينظر فيها حتى يرى نفسه.

فإذا كان بالنفس إزورارا عن أن تفطن لعيوبها التى لا ترتاح إليها، ومن البديهى أن يكون الأمر كذلك، وإذا كان النسيان لما يؤلم النفس ويؤذيها بعض ما تعمد إليه طلبا للراحة، فإن النظر فى أحوال النفس لابد وأن يكون أمرا عسيرا منافيا للميل الطبيعي إلى الراحة والسلامة، ولابد أن تحول غمامة كثيفة دون البصر الصحيح فى النفس لأنه يتضمن بصر النفس بنفسها.

---

* نعيد هنا مقالا لمصطفى زيور من كتاباته الأخيرة (مجلة الفكر العربى المعاصر)، عدد (١١) إبريل ١٩٨١، ص ص ٤-٢٠ كنموذج لفكره وأسلوبه.

ويبين من رسائل فرويد إلى صديقه أنه ظل يتعثر زمنا طويلا فلا يرى من الحقيقة إلا جانبا مبتورا مشوها، ولم يوفق فى استجلائها واضحة إلا بعد أن ظهر على ما فى نفسه من عناد ومقاومة ونفور من الاستبصار، فانكشفت له أعماق نفسه من خلال التحليل النفسى الذى أجراه على نفسه وانبثقت ضياء بددت الظلمات فزالت الغشاوة التى كانت تحجب عنه رؤية الحقيقة كاملة.

وقد أضحت هذه التجربة الفريدة نموذجا يحتذى فى إعداد المحللين النفسيين، فالشرط الأساسى الذى تفرضه معاهد الاتحاد الدولى للتحليل النفسى للحصول على عضويته هو إجراء تحليل نفسى على كل طالب على يد أستاذ فى هذا الفن قبل أن يلقن أساليب العلاج ويتدرب عليه.

ومن حقنا أن نطرح السؤال الآتى: لم كان من حظ فرويد أن يكشف عن أعماق النفس بالرغم من أنها مسألة شغلت الفلاسفة والعلماء منذ أقدم العصور؟ ولا شك أن الإجابة الكاملة عن هذا السؤال غير ميسورة وأغلب الظن أن هناك أكثر من سبب فى انفراده بهذه المكتشفات، ولكن الذى لا شك فيه أن التجربة الفريدة التى قام بها فرويد مع نفسه كانت سببا بغيره ما كان بوسعه أن يظفر بما ظفر به من نتائج.

فنحن لا نعرف فى تاريخ الفكر كله باحثا وقف من نفسه كما وقف، ولا نعرف عالما واجه نفسه وتجمل بالصبر والشجاعة بمثل ما فعل.

حقا أننا نعرف بين أهل التصوف من جاهد مع نفسه جهادا مظفرا، ولكن هذا الجهاد كان فى ضبط النفس وترويضها وأحكام القيد على الشهوات المتوحشة وإيصاد الباب دونها ثم إنكارها تخلصا منها، على حين أن فرويد وجد النجاة فى أن يطل عليها ويمعن النظر فيها.

ونعرف بين أهل الفن والشعر والأدب من نفذت بصيرته إلى أعماق النفس فلمح بعض جوانبها فى ومضة من ومضات الحدس، ثم توسل بروعة الفن فى الإعراب عما لا يجوز

الإعـراب عـنه، ألم يعبر سوفوكليس عـن عقـدة أوديـب عـندما جعـل " يوكاستا " تقول مخاطبة أوديب: " كم مـن فـان قبلك ضاجع فى الحلم أمه ولكن يسهل عبء العيش لمن لم يلق إلـى ذلـك بـالا "، وعبـر " ديدرو " Diderot عـن هـذه العقدة فى قصته " ابن أخ رامو " عندما قال فى وصف الـصبى الصغير: " إذا ترك الأمر لهذا الـصغير المتوحش وظل على طيشه، وجمع بين قلة العقل التى تميز الطفل الـصغير وعنف الشهوات التى نجدها لـدى الـرجل فى الثلاثين فلن يحجم عندئذ عن أن يدق عنق أبيه ويضاجع أمه ".

بيد أن هذه اللمحات وغيرها بقيت ضربا من التعبير الفنى لا تؤخذ مأخذ الجد ولا تعتبر من القضايا التى يقرها المنطق العلمى فهى مقبولة من الفنان مـا دام بوسعه أن يستثير فينا شعور النـشوة بالجمال، والواقع أن التحليل النفـسى لم ينشأ إلا لأن مكتشفه كان بفطـرته طلعة، شديد الاحتفال بمشاكل الإنـسانية علـى النحو الذى تميز به الفلاسـفة السلفيون من ناحية، ومن ناحـية أخـرى كانت من بين مواهبه القدرة على الحدس والنفاذ إلى أعماق النفس شأنه شأن الشعراء ومن إليهم من أهل الفن، ثم القدرة بالإضافة إلى ذلـك على إخضاع هذا كله لمقتضيات البحث العلمى التى اكتسبها أثناء طلبه العلـم وقيامه ببحوث بيولوجية خلدت اسـمه فى ميدان الطب العضوى كما سيجىء الحديث عن ذلك فى حينه.

وغنـى عـن البيان أن اصطناع القدرة على الحدس والنفاذ إلى أعماق النفس دون بطاقة المرور إليها، أعنى روعـة الفن، قد اقتضاه نضالا عنيفا مـع نفـسه ومع الناس، فهو لم يكن ينـشد شـعرا ولـم يكـن يعد لوحة تشكيلية، وإنما كان بصدد الكشف عن الحقـيقة التـى تبين أثناء جهاده أنها مـوجعة مفـزعة معـا، وكان يتأهب للدخـول فى منطقة كانت حراما على غير أهل الفن، فلابد أن يكون ذلك قد أشـاع فـى نفـسه جزعا لا يقل عما أشـاعه فى نفوس أناس، ونحن نعلم أنه صمد، على حين لاذ غيره بالفرار.

والواقع أن كتابه " تفسير الأحلام " وهو أعظم مؤلفاته من غير شك، استقبل عند صدوره استقبالا سيئا من معاصريه من العلماء، فها هو ذا البروفيسور " ليمان " الأستاذ بجامعة برلين يكتب عنه قائلا: " لقد انتصرت فى هذا الكتاب الأفكار الخيالية للفنان على الباحث العلمى ".

وأننا نعلم اليوم أن هذا النقد - وإن جانبه الصواب - يلمس عن غير قصد حقيقة هامة تلك التى أشرنا إليها عندما قلنا إن مكتشف التحليل النفسى ما كان ليظفر باكتشافاته ما لم يصطنع ضربا من الحدس الفنى أخضعه لأسلوب البحث العلمى، فإن ما يميز الإنتاج الأدبى والشعر خاصة هو كما يقول كولريدج " التعطيل الإرادى للريبة "، فالشاعر الأصيل يعطل عن قصد ارتيابه فيما جرى العرف على الارتياب فيه والاستخفاف به، فالأخيلة التى يذود الناس عنها ويرونها أضغاثا باطلة، تلقى لديه أذنا صاغية، وهاهو ذا فرويد يكتب فى سيرته التى تحمل فى ترجمتها العربية عنوان " حياتى والتحليل النفسى " ما يأتى: " كنت أعطل ملكتى النقدية حتى أحتفظ بموقف غير متحيز لآراء سائدة وأكون مستعدا للنظر فى أى أمر يجد من الأمور التى كانت تنكشف لى كل يوم "، والحق أن أهم ما يتميز به رواد العلم أنفسهم إنما هو هذه " السذاجة " التى يعرفون كيف يتلقون بها الظواهر.

إن هذا المزيج من الحدس الفنى وأسلوب النظر الفلسفى فى الإنسان والتزام قواعد البحث العلمى مع ذلك شيء فريد فى تاريخ المعرفة يفسر لنا بعض الأسباب التى جعلت اكتشاف أعماق النفس اكتشافا علميا من حظ فرويد، كما يفسر لنا التناقض فى بعض ما وجه إليه من نقد، فبعض النقاد من أهل العلم - وخاصة فى مطلع هذا القرن - كانوا يرون أن فرويد يتصف فى بحوثه بنوع من الروحية لا ينبغى للعالم أن يتصف بها، بل قد أنكر عليه بعضهم أن يولى عنايته لمسائل العاطفة وما إليها مما يعتبر عادة بضاعة الأدباء والشعراء،

ونجد فى المسائل النفسية حتى أضحت النفس على يديه وكأنها شيء آلى، وبوسعنا الآن أن نتبين السبب فى هذين النوعين المتناقضين من النقد فكلاهما يعبر عن بعض الحقيقة ويقومان دليلا على أن السر فيما وفق إليه فرويد هو أنه استطاع أن يكون لا ماديا وماديا معا، يصدر عن بعض ما يصدر عنه الشاعر وبعض ما يصدر عنه الفيلسوف مخضعا ذلك كله لأساليب العلم، وفى جُماع ذلك يكمن سر عبقريته.

وقد وفق بعض تلامذة فرويد إلى اكتشاف بعض المستندات غير رسائله لصديقه آنفة الذكر، وقاموا بدراسات مستفيضة أوضحت معالم فجر تاريخ التحليل النفسى وبين أن ما قام به فرويد من دراسات فى التشريح والهستولوجيا، ثم فى الأمراض العصبية العضوية، وأخيرا فى التحليل النفسى يكون سلسلة متصلة من الحلقات، بحيث أصبح الفهم الصحيح للتحليل النفسى يقتضى فهما دقيقا لحلقاته الأولى، بل فهما دقيقا لما قبل التحليل النفسى من حلقات.

وسأحاول فيما يلى أن أبرز بعض المسائل الهامة فيما قبل تاريخ التحليل النفسى وفى فجر تاريخه.

فى تاريخ ما قبل فجر التحليل النفسى:

يقول فرويد عن نفسه: كنت فى حداثتى أحس رغبة ملحة فى أن أفهم أسرار هذا العالم الذى نعيش فيه لعلى أساهم فى توضيح بعض هذه الأسرار، فبدا لى أن أنسب الطرق للوصول إلى هذا الهدف هو دراسة الطب ولم يخالفنى التوفيق عند ذلك أثناء محاولاتى التجريبية فى عالم الحيوان والكيمياء، وفى النهاية استقر بى المقام فى البحث فى ميدان الفسيولوجيا وذلك بفضل ثقة من كبار الثقات هو العلامة " إرنست بروكه " E.Bruke الذى ترك فى نفسى أثرا عميقا لا يضارعه ما تركه غيره من الناس فى نفسى طوال حياتى كلها.

فمن هو بروكه وما سر هذا الإجلال؟ لابد من فهم شخصية بروكه إذا أردنا فهما صحيحا للأثر الذى تركه

فى نفس فرويد وبالتالى أثره فى نشأة التحليل النفسى، كان إرنست بروكه (١٨١٩ - ١٨٩٢) أستاذا للفسيولوجيا ومديرا لمعهد الفسيولوجيا بكلية الطب بفيينا، وكان واحدا من أربعة من العلماء الألمان الذين أسسوا المدرسة الطبية المشهورة بمدرسة "هرمان هلمهولتز" أبرز أعضائها.

ولعل خير ما يلخص المبادئ التى نادت بها هذه المدرسة ما كتبه " ديبوا ريموند " أحد أعضائها، إذ قال: " لقد أقسمت أنا بروكه قسما لا نحنث فيه أن نضع الحقيقة الآتية موضع التنفيذ: لا يوجد فى جسم الإنسان من أنواع الطاقة الفعالة سوى الطاقات الفيزيائية والكيميائية العادية، ففى الحالات التى لا يمكن تفسيرها حاليا بهذه الطاقات علينا إما أن نكتشف الطريقة الخاصة لفعلها بواسطة المنهج الفيزيائى الرياضى أو أن نفترض وجود قوى جديدة مماثلة فى مرتبتها للقوى الكيمائية الفيزيائية المطبوعة فى المادة والتى يمكن إرجاعها إلى قوة الجذب والدفع ".

تقوم مدرسة هلمهولتز إذن على التفسير الفيزيائى الكيميائي لظواهر الحياة، وقد وفق أعضاؤها، وخاصة هلمهولتز فى اكتشافات علمية خطيرة حتى سيطرت مبادئ هذه المدرسة على تفكير علماء الفسيولوجيا والطب فى ألمانيا والنمسا وذاعت شهرتها فنشط البحث العلمى بتأثيرها نشاطا عظيما فى سائر الأقطار الأوربية.

وجدير بالذكر أن المبادئ التى اعتنقتها هذه المدرسة لم تكن مجرد مفاهيم علمية وفروض للبحث، بل كادت تكون موضعا للتقديس ذلك أن هذه المبادئ بالرغم من كونها ثمرة التطور الطبيعى فى الفكر الأوربى فى القرنين السابع عشر والثامن عشر، فقد نشأت هذه المبادئ لمناهضة موجة من الفلسفة العاطفية تدعى فلسفة الطبيعة نادى بها الفيلسوف " شلينج " فاجتاحت ألمانيا فى الربع الأول من القرن التاسع عشر، ويبدو أن الحرب التى شنها علماء مدرسة

هلمهولتز على هذه الفلسفة جعلتهم يشتطون فى حماسهم لمبادئهم.

كانت الروح العلمية لهذه المدرسة تتسم بالجد والصرامة والتزمت العلمى، وكان معهد الفسيولوجيا بفيينا أحد معاقلها، أما بروكه مدير هذا المعهد فكان يمثل بطبعه مبادئها أحسن تمثيل، فقد كان على قصر قامته يشيع مظهره الرهبة فى النفوس لجمود قسمات وجهه وحدة نظراته وميله إلى الصمت، وكان الرجل متوقد الضمير نزيها مخلصا لواجباته العلمية، دؤوبا على العمل لا يكل ولا يقبل من تلامذته تهاونا فى التزام هذه الصفات، ويحكى عنه أن تلميذا قدم إليه بحثا كتب فيه: " إن الملاحظة السطحية تبين ... " فأعاده إليه بروكه بعد أن شطب هذه الجملة معلقا عليها بقوله: " لا يجوز أن تكون الملاحظة سطحية ".

ومع ذلك فقد كان بروكه موضع إعجاب تلامذته محبوبا منهم لأنه كان رفيقا بالجادين المخلصين منهم مشجعا للموهوبين مهما تعارضت آراؤهم فى التفسير العلمى مع رأيه فضلا عن إنكاره لذاته وتواضعه وقلة احتفاله بالمجد وإعراضه عن زخرف الحياة.

يتضح إذن أن الإجلال الذى كان يحمله فرويد لأستاذه بروكه يرجع إلى أن هذا العلاّمة كان يمثل مبادئ ومُثُلا يكبرها ويبجلها التلميذ فرويد ويسعى إلى اعتناقها، فاتخذ من أستاذه قدوة يقتدى بها، فالدأب على الاستقصاء والبحث العلمى الدقيق مهما كلف الإنسان من مشقة والنزاهة العلمية المطلقة أصبحت مبادئ مقدسة ينتصر لها الطالب فرويد ولا يجد الراحة إلا فى ظلها، وهاهو يقول: " وأخيرا وجدت فى معمل إرنست بروكه الفسيولوجى راحة ورضا فضلا عن قوم أبجلهم وأقتدى بهم ".

وعلينا الآن أن نبحث عن السبب فى إصرار فرويد على اعتناق هذه المبادئ وحماسه الشديد لها، ليس من شكل أن أحد هذه الأسباب هو الحماس الذى يحتاج إليه كل باحث علمى وخاصة إذا كان شابا فى اعتناق منظور علمى بعينه فضلا عن الميل

إلى اتخاذ " صورة أبوية " مثالية يقتفى خطاها، وسبق أن ذكرنا أن مبادئ مدرسة هلمهولتز نشأت لمعارضة فلسفة الطبيعة وهى فلسفة تتسم بالعاطفية وهاهو فرويد ينبئنا فى سيرته سالفة الذكر: " وأذكر أن استماعى لبحث جوته Goethe الممتع عن الطبيعة، هو الذى جعلنى أقرر أن أدرس الطب "، ونحن نعلم أن الشاعر جوته كان من أتباع مذهب فلسفة الطبيعة، فمن المفارقات أن يستثير بحث جوته إعجابه وحماسه فيحفزه إلى دراسة الطب، ثم الانخراط فى سلك مدرسة هلمهولتز التى قامت لمناوأة فلسفة الطبيعة وتزداد دهشتنا عندما نعلم أن فرويد اعتنق فى حداثته هذا المذهب الفلسفى، ثم نراه بعد ذلك يتخذ طريقا معارضا، ونجده يذكر فى أكثر من موضع أنه لم يكن يميل فى حداثته إلى اختيار مهنة الطب وهاهو يقول: " ولم أكن فى ذلك الوقت أو فى أى وقت آخر من حياتى أستشعر ميلا خاصا إلى مهنة الطب، وإنما كنت مدفوعا بضرب من الفضول " كان دائما أكثر تعطشا إلى الأمور الإنسانية منه إلى موضوعات العلوم الطبيعية، غير أن نظريات دارون التى شاع الاهتمام بها فى ذلك الحين اجتذبتنى إليها اجتذابا قويا لما كانت تبشر به من تقدم فائق فى تفهم الكون ".

يتضح إذن أنه فطن إلى أن الطريق الصحيح لتحقيق مآربه المعرفية الواسعة هو التزام منهج البحث العلمى الدقيق حتى ينأى عن مواطن الزلل التى قد يتعثر فيها الخيال المنطلق ويجنب نفسه شطط الجدل الفلسفى الذى قد يظفر "بالمعقول " الميتافيزيقى دون أن يكون فى هذا المعقول غناء من حيث القدرة على الأشياء كما يقال فى الفلسفة الوضعية، وهكذا يتضح أن حماسه لمبادئ مدرسة هلمهولتز كان بمثابة الضابط لخياله المتوثب وميله الفطرى إلى الجدل الفلسفى والتحليق فى أجواء المشاكل الإنسانية الكبرى.

ونجد الدليل على ما فطر عليه فرويد من قدرة على الجدل العميق وما وهبه من سعة الخيال إذا قرأنا الفصل

الأخير من كتابه تفسير الأحلام، أو فصوله ورسائله فى ما بعد علم النفس Metapsychology أو كتابه " ما فوق مبدأ اللذة " وقد نجح فى ضبط ميوله هذه وإخضاعها لمقتضيات البحث العلمى فكانت ثمرة ذلك اكتشافاته الفريدة، على أن ما فطر عليه من الاهتمام الفلسفى بما هو " إنسانى " أعانه على إدراك " العنصر الإنسانى " فى المرض النفسى.

لقد أسهبنا فى بيان علاقة فرويد بمدرسة هلمهولتز لسببين:

الأول: أن مؤرخى التحليل النفسى كانوا قبل اكتشاف الوثائق الآنفة الذكر يرجعون بداية التحليل النفسى إلى ما تأثر به فرويد أثناء صلته " بيوزريف بروبير " ثم بالعلاّمة الفرنسى شاركوه، ولكننا نعلم اليوم أن الإطار الذى صبت فيه مكتشفات التحليل النفسى صنع قبل ذلك من مبادئ تلقنها فرويد أثناء السنوات الست التى قضاها باحثا فى معهد الفسيولوجيا.

الثانى: أن فهم التحليل النفسى لا يستقيم إذا غابت عنا هذه الآثار الأولى فى تكوين فرويد.

وسنرى أن مكتشفاته الأولى فى التحليل النفسى كانت مطبوعة بطابع مدرسة هلمهولتز فى الفسيولوجيا الفيزيائية، بل إننا نراه يكتب عام ١٩٢٩ بعد أن أنجز أعماله الكبرى، مقالا فى الموسوعة البريطانية يصف التحليل النفسى فى عبارات تكاد تكون مماثلة لعبارات أستاذه بروكه فى مسائل الفسيولوجيا الفيزيائية ما زالت ماثلة فى بعض مفاهيم التحليل النفسى فى صورته الحالية: مثال ذلك ما يعرف بالنظرة الاقتصادية التى تعتمد على تقويم الطاقة النفسية تقويما كميا.

وسنرى فضلا عن ذلك أن تحوله عن التفسير الفسيولوجى البحت إلى التفسير السيكولوجى للحياة النفسية لا يرجع إلى إعراضه عن المبادئ التى اعتنقها منذ كان يطلب العلم على بروكه، فقد ظل مخلصا لها طوال حياته، وإنما يرجع إلى ما وفق إليه من تطبيق روح هذه المفاهيم فى دراسة النفس، مغفلا الربط بينها وبين الأسس التشريحية والفيزيائية، ما دمنا

نجهل نوع العلاقة بينها مهما كان إيماننا بوجود هذه العلاقة، وعندما أشرف على السبعين قال فى مناسبة احتفال مهيب: " لقد دأبت طوال حياتى على السعى نحو هدف واحد أن أستنتج أو أحذر تركيب الجهاز النفسى ما يتفاعل ويتشاحن فيه من القوى " ولا شك أن هذه العبارة وما تشمله من مفاهيم " الجهاز " و" القوى " و" التفاعل " مما يندرج تحت مبادئ مدرسة هلمهولتز بالرغم من أنه لم يعد يقصر تصوره لها على ما كان يقصره عليها أستاذه بروكه.

قلنا إن فى بحوث فرويد فى تشريحه للجهاز العصبى وفى الأمراض العضوية لهذا الجهاز ثم فى التحليل النفسى سلسلة متسقة الحلقات، علينا إذن أن نلقى نظرة سريعة على ما قام به من دراسات فى التشريح وفى الأمراض العضوية العصبية قبل أن نعرض لبداية بحوثه فى التحليل النفسى.

البحوث الأولى فى التشريح الهستولوجى:

كان فرويد ما زال طالبا بكلية الطب عندما أجرى بحوثه التشريحية الهستولوجية بمعمل إرنست بروكه وكان أول بحث قام به هو محاولة الكشف عن طبيعة بعض الخلايا الغريبة التى اكتشفت فى خلايا النخاع الشوكى فى نوع بدائى من الأسماك، فأثبت أن هذه الخلايا تنتمى إلى الخلايا العقدية الشوكية؛ ظلت فى النخاع لدى هذه الفقريات السفلى على حين نجدها فى الفقريات العليا خارج النخاع، وأن السبب فى ذلك يرجع إلى عدم اكتمال هجرة الأنبوبة العصبية الجنينية لديها نحو السطح، وأن المكان الذى تنتشر فيه هذه الخلايا يعين الطريق الذى اتخذته إبان عملية التطور فى الحيوانات العليا، ثم أثبت بعد ذلك أن الصلة غير منقطعة بين الخلايا العقدية ذات القطبين التى تميز الفقريات السفلى والخلايا ذات القطب الواحد التى تميز الفقريات العليا بأن بيّن الانتقال من النوع الأول إلى النوع الثانى فى نوع متوسط بينهما، ولا

شـك أن هذه النتائج مما يسند نظرية التطور.

يتـضح من هذا التلخيص لبحوثه الأولـى فـى التـشريح الهستولوجى اهـتمامه بالنظرة النشوئية وهو اتجاه أفـاد منه التحليل النفسى كما سيجيء الحـديث عن ذلك فى حينه، وقد امتاز بحـثه الثانى بالدقة والطرافة مما حفز أسـتاذه بـروكه إلى أن يقدم نتائجه للأكاديمـية ويطـبعه فـى نـشرتها الرسمية، ثم اتجه اهتمامه إلى دراسة تـشريح الخلايـا العـصبية فى بعض الأسـماك السفلى، فكان أول من أثبت أن الزوائد المحورية للألياف العصبية خيطـية التركيب، وأن الألياف تصدر مـن مـادة شـبه شـبكية فى الخلية العصبية، وبعبارة أخرى فقد قدم أدلة علـى الـوحدة التشريحية والوظيفية، فمهد ذلك إلى ما قام به " فالدير " بعد ذلـك بسنوات قليلة من صياغة نهائية لهـذه الحقيقة. ويلفت نظرنا فى هذه البحوث الأولى أمور ثلاثة:

الأول: أنه فطن فى أول عهده بالبحث العلمى إلى أهمية استنباط منهج جديد عند محاولة الكشف عن وقائع جديدة، فقـد عمد فى بادئ الأمر إلى استنباط وسـائل فنـية جديدة مكنته من صبغ الأنـسجة علـى نحـو وضح ما كان غامضا فى تكوينها، وقد سار على هذا الـنهج فـى السنوات التالية فاكتشف طـريقة الـصبغ بواسـطة " كلورور الـذهب " ولـم يفته عندما أقدم على دراسـة الأعراض النفسية أن يجرب حتـى وقـع علـى أخطـر كشف فى الدراسـات النفسية قاطبة أعنى منهج " التداعى الحر ".

والأمر الثانى الذى يلفت نظرنا فى هـذه البحوث الأولى أننا نراه يتوخى كل ما ينبغى للعالم أن يتوخاه من الدقة فـى الملاحظة والحرص على تسجيل النتائج وعرضها ثم التمييز بين ما هو ثابت وما هو محتمل، وفضلا عن ذلك فإننا نجده فى محاضرة يلخص بحوثه سـالفة الذكـر فيبدأ بوصف الوسائل الفنـية التى استنبطها ثم الحقائق التى اكتـشفها بفـضل هـذه الوسائل، ثم النظـرية التـى يقترحها لتفسير هذه الحقائق وأخيرا نجده يطلق تفكيره من

عقالـــه الـــذى فرضـــه عليه فيترامى بالنظر الجدلى إلى آفاق يوحى بها ما كشفته الملاحظة من وقائع وإن كانت هذه الآفاق تفتقر إلى البرهان العلمى، يتضح إذن أنه كان يفهم جيدا وظيفته كـــباحث وعالم، ويميز بينها وبين ما تطمـــح إلـــيه نفسه من التطلع إلى ما وراء الحقائـــق الإمبيـــريقية، وهـــى صـــفات ظل يتصف بها طوال حياته، ومـــن المؤســـف أن بعـــض قرائه – وخاصـــة فـــى الـــشرق العربى – لم يفطـــنوا إلى هذا التمييز، فاختلطت فى أذهـــانهم الحقائـــق التى كشفها منهج التحليل النفسى، بالنظريات التى أعدها فـــرويد لتفسير هذه الحقائق وشرا من ذلـــك أن اخـــتلط هـــذا كله بالنظريات الجدلية التى أطلق عليها: " ما بعد علم النفس ".

والأمر الثالث الذى يلفت النظر أنه حـــاول أكثـــر مـــن مـــرة أن يستخدم الوسائل التجريبية المألوفة فى ميدان الفسيولوجيا، فلم يفلح واقتصر توفيقه على البحوث الهستولوجية التى تعتمد على النظر الطويل فى الميكروسكوب، يـــبدو إذن كما يقول " إرنست جونز " فـــى كتابة " حياة فرويد وأعماله " أن مكتـــشف التحليل النفسى كان عزوفا بطبعه عن أن يقحم نفسه على الأشياء ويتحكم فى سيرها التلقائى بأن يفرض علـــيها مـــا يراه من التغيير والتعديل، ومـــع ذلك فقد مكنت لنا مكتشفاته من الظفـــر بالقدرة على أعمق التغيير فى شخـــصية الإنـــسان، بفـــضل مـــنهج التداعـــى الحـــر، وهو منهج لا نعدو الحقـــيقة إذا أســـميناه بالميكروسكوب النفسى.

وعـــندما اضطر إلى كسب عيشه مـــن مـــزاولة مهنة العلاج النفسى لم يطـــل اســـتخدامه للأجهزة الكهربائية المألـــوفة إذ ذاك عـــندما تبين له عدم جدواها وما لبث أن أقلع بعد ذلك عن اســـتخدام طـــريقة الإيحـــاء والتنويم بدورها ومحاولة التأثير على المريض مـــن حيث إنها كما وصفها: " طريقة تقـــوم علـــى التدخل الخشن " ثم قاده طـــبعه إلـــى موقـــف يكاد يكون سلبيا عندما اقتصر على المراقبة والملاحظة دون التدخل غير المناسب فيما يجرى

أمامه من الأحداث، فكانت نشأة التداعى الحر ثم اكتشاف أعماق النفس، وقد ذكر فى أكثر من مناسبة أنه عزوف بطبعه عن سياسة الناس وتربيتهم وطبهم، ومع ذلك فقد حياه الناس كطبيب من أعظم الأطباء.

لقد كان معاصره بيرجانيه (P.Janet) رجلا ذكيا ميالا بطبعه إلى استخدام الأساليب التجريبية، فاستنبط تجارب فذة أجراها على مرضاه، أسفرت عن نتائج طريفة ولكنها لم تقده نحو الكشف عن طبيعة القوى المتفاعلة فى أعماق النفس، على حين أن ما فطر عليه فرويد من الامتناع عن إقحام نفسه أو رأيه على الأشياء كما سبق القول، قاده فى ميدان الطب النفسى إلى أعمق الإنجاز، يبدو إذن أننا نلمس هنا - كما يقول إرنست جونز - حقيقة متناقضة المظهر لعلها بعض السر فيما انفرد به من مكتشفات، كان لابد لمكتشف التحليل النفسى أن يكون صبورا قانعا بالملاحظة والتأمل، زاهدا فى السلطان بأنواعه شغوفا بشيء واحد: كسب المعرفة عن طريق التأمل فى طبيعة الأشياء.

وقد دفع شغف فرويد ببحوثه فى معمل بروكه - بالرغم من رقة حاله - إلى أن يهمل تأدية امتحاناته الطبية والحصول على الإجازة التى تهيئ له كسب العيش، وانصرف بكل قلبه إلى تلك البحوث حتى أيقظه أستاذه بروكه من غفلته فنصحه ملحا بأن يتخلى عما كان ينفق فيه كل وقته من بحث بدون عائد مالى فترك معمل الفسيولوجيا وتقدم للامتحان فيما بقى له منه حتى حصل على درجة الدكتوراه فى الطب، والتحق طبيبا تحت التمرين بالمستشفى العام، ثم رقى إلى وظيفة طبيب مقيم " نائب " وتنقل بين مختلف أقسام المستشفى، ولما تقدم للحصول على درجة محاضر (Dozent Privat) بكلية الطب وضعت لجنة الفحص تقريرا عن بحوثه وصفاته الشخصية قالت فيه: " إن الدكتور فرويد رجل موفور الثقافة يمتاز بخلق هادئ جاد، وهو باحث ممتاز فى ميدان التشريح العصبى

فائق في مهارته اليدوية وبصره الجلى، واسع المعرفة حذر حريص فى القياس والاستقراء، موهوب فى أسلوبه في العرض المنظم "، وقد فازت نتائج بحوثه بالاعتراف والتأييد، أما أسلوبه في المحاضرة فيمتاز بالوضوح والدقة، ومن حيث إنه جمع إلى صفات الباحث العلمى صفات المدرس الكفء، فإن اللجنة تقترح قبوله، أقبل فرويد وقد أصبح طبيبا على التخصص فى أمراض الجهاز العصبى، مدفوعا فى ذلك باهتماماته وبحوثه السابقة فى تشريح هذا الجهاز، ولكنه لم يبرأ من شغفه بالبحث المعملى فطلب من أستاذه " مينرت " Meynert الإذن باستخدام معمله لإجراء بحوث تشريحية على المخ، وبدأ بدراسة النخاع الشوكى المستطيل بعد أن أنفق ست سنوات فى دراسة النخاع الشوكى فى معمل بروكه، وهاهو يبدأ كسابق عهده فيستنبط وسائل فنية جديدة تعينه على البحث فى تركيب هذا الجزء المعقد من الدماغ وإزالة الغموض الذى كان يشمله فى ذلك الوقت.

وتمتاز بحوثه فى النخاع المستطيل باستخدام مبدأ جديد، فعندما كان يبحث فى تشريح النخاع الشوكى فى معمل بروكه كان رائده التطور فى سلسلة الفقريات أي ما يسمى فى الاصطلاح بالتكوين " الفيلوجيني " أما دراسته فى النخاع المستطيل فقد استعان فيها بالتكوين " الأنتوجيني " أى بنمو الدماغ منذ تكوينه لدى الجنين حتى يكتمل لدى البالغ ونعلم أنه استخدم هذين المبدأين استخداما نافعا فى دراساته النفسية فيما بعد.

وقد وصل فرويد من هذه البحوث إلى نتيجتين هامتين: أنه أثبت لأول مرة أن كلا من العمودين الخلفيين فى النخاع الشوكى يتصلان بشقى المخيخ، كما أثبت الاتصال بينهما وبين جذور العصب السمعى، فضلا عما وضحه من المراحل التى يمر بها هذا العصب أثناء النمو، والنتيجة الثانية هى أنه بيَّن أن الأعصاب الحسية فى المخ إنما هى نظائر

للجذور الحسية فى النخاع الشوكى، وهى نتيجة تسند نظرية التطور، كما سندتها بحوثه السابقة.

أما فى الميدان الإكلينيكى فقد نشر عدة بحوث أهمها: بحث فى شلل الأطفال المركزى خلد اسمه فى طب الأمراض العصبية والعضوية، فكان أول من اكتشف مرض الشلل الشبيه بالرقاص (Choreotiforme Paresis)، وقام بوصف أعراضه ودراسته من نواحيه التشخيصية، والتشريحية، والعلاجية، ويعرف كل طبيب أن اكتشاف مرض ودراسته على هذا النحو عمل يقتضى دقة فائقة فى الملاحظة والاستقصاء العلمى مما لا يتاح إلا لنوابغ الطب، وأنه غاية ما يصبو إليه الباحث فى الميدان الإكلينيكى.

ثم نشر بعد ذلك رسالة مستفيضة فى شلل الأطفال بأنواعه، علق عليها " بيير مارى " (Pierre Marie) أستاذ الأمراض العصبية الفرنسى المشهور وخليفة شاركوه فقال: " إن هذه الرسالة تعتبر من غير شك أكمل بحث وأدق وأعمق ما ظهر من البحوث إلى يومنا هذا فى موضوع شلل الأطفال المركزى.

وقد أصبح فرويد عندئذ أول ثقة فى هذا الباب من طب الأمراض العصبية العضوية فلما شرع " نوثناجل " Nothnagel فى إخراج موسوعته الطبية الكبرى دعا فرويد إلى كتابة الفصل الخاص بشلل الأطفال المركزى. وكتب البروفسور " بران " Brun – أستاذ الأمراض العصبية بجامعة زيورخ فى الثلاثينات من هذا القرن – يعلق على هذا الفصل الذى كتبه فرويد منذ نحو نصف قرن فقال: " إن ما كتبه فرويد فى هذا الموضوع يعتبر أكمل وأعمق ما نشر عنه إلى يومنا هذا، وهو وحده كاف لتخليد اسمه فى طب الأمراض العصبية الإكلينيكى.

ومع ذلك إذا ذكر فرويد فقلما يذكر أطباء الأعصاب فضله فى هذا الميدان لأن فضله فى الطب النفسى لمع لمعانا انطفأ بجانبه كل فضل آخر. هذا وقد نشر فى موضوع شلل الأطفال المركزى عدة بحوث تفصيلية فى

الدوريات المتخصصة الألمانية والفرنسية، وكذلك نشر بحوثا من الناحية الإكلينيكية ، ومن الناحية التشريحية الباثولوجية فى ميدان الطب العصبى. نحيل القارئ إلى مراجعتها حيث إننا لسنا بصدد عرض جميع بحوثه الطبية العضوية فى تلك الحقبة، وإنما أردنا أن نشير إليها إشارة سريعة لنبين مسار بحوث فرويد منذ أن أقدم على البحث العلمى لكى نبين الخلفية العلمية السابقة على بحوثه فى ميدان الطب النفسى.

بقى لكى نختتم الحديث عن هذه الحقبة التى انصرف فيها فرويد إلى الطب العصبى العضوى أن نذكر بحثه فى " الأفيزيا " Aphasia أى أمراض الكلام الناشئة من إصابة عضوية، ويعتبر هذا الكتاب حلقة متوسطة بين دراساته العضوية البحتة، ودراساته النفسية اللاحقة من حيث إنه يعالج أمراض وظيفة الكلام وهى وظيفة عقلية نفسية ثبتت علاقتها الوثيقة بالمراكز المخية العليا.

لم ينشر فرويد فى هذا الكتاب اكتشافا جديدا من نوع اكتشافاته السابقة وإنما كتب فيه نقدا لنظريات الأفيزيا السائدة فى عصره، ومع ذلك فإن أهمية هذا الكتاب تفوق كل ما سبقه من أعماله العلمية، إذ تلمس لأول مرة صفات فرويد التى نعرفها له فى مؤلفاته فى التحليل النفسى، من قدرة على التفكير النافذ إلى قلب الموضوع والأصالة فى النظر والمناقشة المتزنة لنواحى الموضوع المختلفة، وفى هذا الكتاب، نجده لأول مرة يخرج على الرأى السائد ويقيم الدليل على خطئه ويولى ملاحظة السلوك اللغوى أهمية لا تقل عن أهمية ملاحظة الوقائع التشريحية، ويتخذ من ملاحظة السلوك اللغوى سبيلا إلى إقامة رأى جديد.

لقد كانت النظرية السائدة فى الأفيزيا تستند إلى اكتشاف " بروكا " Broca (طبيب الأمراض العصبية الفرنسى) إصابة فى منطقة بعينها فى الفص الجبهى من المخ فى حالات ضياع القدرة على النطق، ثم إلى

اكتشاف " فيرنيك " إصابة فى منطقة بعينها فى الفص الصدغى فى حالات ضياع القدرة على فهم الكلام، واعتبرت هاتان المنطقتان "المركزين" الأساسيين لوظيفة الكلام، تصاب بإصابتهما وظيفة الكلام فى ناحيتى التعبير والفهم، أو فى ناحية منهما طبقا لموضع الإصابة.

يبدو ذلك واضحا جليا ويقدم برهانا على النظرة التى تجعل الظواهر النفسية وظائف لمناطق تشريحية محددة فى المخ، ويجعل من واجب أصحاب هذه النظرة أن يفسروا سائر مظاهر الاضطراب فى الأفيزيا بما يتفق مع هذه المبادئ التشريحية: مثلا هناك ظاهرة ضياع القدرة على قراءة الحروف، مع بقاء القدرة على قراءة الكلمات، وكذلك ضياع القدرة على فهم لغة تعلمها المريض حديثا مع بقاء القدرة على فهم لغته الأصلية، وغير ذلك من المظاهر، فراحوا يرسمون نظما معينة لاتصال المراكز بعضها ببعض وافترضوا وجود مناطق تتلاقى فيها الاتصالات بحيث إذا وقعت الإصابة فى إحداها يسفر ذلك عن ظاهرة من ظواهر الاضطراب الآنفة الذكر، وكلما اكتشفت ظاهرة جديدة فى ميدان الأفيزيا جعلوا يعدلون ويبدلون فيما رسموا كى يدخل تفسيرها فيما افترضوا من نظام تشريحى حتى أصبحوا أمام شبكة من الاتصالات شديدة التعقيد لا يسندها دليل من البحث التشريحى.

وأول ما لفت نظر فرويد أن الملاحظة الإكلينيكية لمظاهر السلوك اللغوى لدى المريض بالأفيزيا – إذا لم يكن الإنسان متعصبا للمذهب السائد – لا تؤيد النظرية التشريحية التى تخصص لكل ظاهرة نفسية موضعا تشريحيا محددا ترتبط به، فأعلن أن الملاحظة تميل بنا إلى تفسير وظيفى يختلف عن التفسير التشريحى البحت، وخاصة أن فحص النظام التشريحى الذى افترضه أصحاب هذا المذهب يدل على وجود متناقضات كثيرة تجعله مخلخلا لا يستقيم فى الأذهان، علينا إذن أن نفترض وجود صفات وظيفية بعينها إذا أردنا أن نفسر مظاهر

الاضطراب فى الأفيزيا تفسيرا متماسكا متفقا مع معطيات السلوك اللغوى لدى المرضى.

فإذا لم يكن هناك من شك فى أن الإصابة فى المراكز الأساسية الثلاثة للحركة، والسمع، والبصر تؤدى إلى أنواع الأفيزيا الكبرى أى انعدام القدرة على التعبير والقدرة على الفهم والقدرة على القراءة، فإن الأنواع الفرعية الأخرى يفسرها اختلال وظيفى مصدره إشعاع الاضطراب من المناطق المصابة، واستند فرويد فى ذلك إلى نظرية " هـ جاكسون " H. Jackson التى تأخذ بأن الوظائف والمنظمات المكتسبة حديثا أو تلك التى تقل أهميتها الحيوية عن غيرها تصاب قبل غيرها، وبعبارة أخرى فإن " الجهاز اللغوى " يتصف بالميل إلى الارتداد إلى أنماط وظيفية بدائية سابقة عندما تقع له إصابة تنال من كفايتها، وقد أطلق فرويد على هذا الميل فقط النكوص (Regression) وفى ضوء مبدأ النكوص الوظيفى نستطيع تفسير الاضطرابات الفرعية فى الأفيزيا، إذا جعلنا نصب أعيننا ما تمر به اللغة من مراحل أثناء النمو، ونعلم أن مبدأ النكوص من المبادئ الأساسية التى استخدمها فرويد فيما بعد فى بحوثه النفسية، فضلا عن أنه مبدأ يندرج تحت المبدأ التكوينى النشوئى الذى استخدمه فى دراساته التشريحية كما سبقت الإشارة إلى ذلك، وقد استخدم فرويد فى كتابه عن الأفيزيا لأول مرة مفاهيم الشحنة (Cathexis) وتعدد الأسباب (Over Determination) وهما من المفاهيم التى استخدمها فرويد بعد ذلك فى التحليل النفسى، وجدير بالذكر أن نقل هذه المفاهيم من ميدان الديناميات الفسيولوجية إلى ميدان الديناميات النفسية عندما فرغ فرويد للتحليل النفسى إنما يقوم دليلا على انطباع فرويد بالدراسات الفسيولوجية، ونجده يستخدم فى كتابه عن الأفيزيا مفهوم " الجهاز اللغوى " وهو مفهوم يقع بين النظام العضوى، والنظام النفسى من حيث إنه يتصل اتصالا وثيقا بالتركيب التشريحى، ونلاحظ أن فرويد

فـــى استخدامه لمفهوم الجهاز اللغوى جعلـــه يـــشمل تنظيميا وظيفيا نفسيا طبقـــيا فـــى تكوينه مثله مثل مفهوم " الجهـــاز العصبى " الذى جعله مركز الـــبحث فـــى التحلـــيل النفسى عندما اقتصر فيما بعد على البحوث النفسية، ويهمنا من كتاب الأفيزيا أمران:

الأول: أن النقد الذى وجهه فرويد إلـــى النظـــرية التشريحية ثم التفسير الوظيفى الذى اقترحه والأدلة على هذا التفسير المستمدة من ملاحظة السلوك أى المعطـــيات السيكولوجية، كل هذا يعتبـــر خطـــوة فى التحرر من تعاليم مدرســـة هلمهولتز وخاصة فى شكلها الميكانيكـــى الضيق، فنراه يحتج على الخلـــط بـــين المعطيات الفسيولوجية والمعطـــيات الـــسيكولوجية ولا يرى جـــدوى فى قصر هذه على تلك، وأنه لابـــد مـــن أخذ المعطيات النفسية وما تقدمـــه مـــن معـــان سيكولوجية فى الاعتـــبار أيا كانت العلاقة بينها وبين المعطـــيات الفـــسيولوجية العاطلة عن المعنى السيكولوجى.

والأمـــر الثانى: أن قلة من أطباء الأعـــصاب يعرفون أن فرويد هو الذى أبـــرز - فـــى كـــتابه عن الأفيزيا - التفـــرقة بين تسمية الأشياء والتعرف علـــيها، وأنـــه هـــو الذى أطلق على اضـــطراب القـــدرة على التعرف على الأشـــياء لفـــظ أجنوزيا (Agnosia) المـــستخدم حالـــيا فى الطب العصبى، فـــضلا عـــن أن الحاجـــة إلى التفسير الوظيفـــى مهدت لظهور نظرية جولد شتاين (Goldstein) فى الأفيزيا التى يمـــيل إلـــى الأخذ بها أطباء الأعصاب حاليا.

يخـــول لنا كل ذلك أن نعتبر كتاب الأفيـــزيا أول جـــولة انقلابية قام بها فـــرويد، يـــؤذن كثيـــر من مفاهيمها باكتـــشافاته فـــى مـــيدان علم النفس المرضى، ويفسر لنا ذلك ميل مؤرخى التحليل النفسى إلى اعتبار هذا الكتاب القنطرة التى مهد عبورها إلى الانتقال مـــن علـــم النفس الفسيولوجى الطابع إلى التحليل النفسى الصحيح.

ولابـــد قـــبل أن ننتقل إلى الحديث عـــن المـــرحلة التالـــية، وهـــى نشأة

التحليل النفسى، أن نشير إلى مسألة هامة، إذا تصفحنا كتابا من الكتب التى تعالج علم النفس التجريبى وجدنا اسم هلمهولتز ونظرياته تستغرق صفحات عديدة، وإذا قرأنا البرنامج الدراسى فى أحد معاهد علم النفس التجريبى وجدنا جزءا هاما منه يدور حول دراسات هلمهولتز ومن سار على نهجه فى البصريات والسمعيات وما إليها، وإذا اطلعنا على برامج الدراسات العليا فى الطب النفسى وجدنا جزءا كبيرا منها ينصب على تشريح الجهاز العصبى ووظائفه وأمراضه، ثم تصنيف الأمراض العقلية تصنيفا وصفيا بحتا طبقا لمذهب " كريبلين " Kraeplin (الطبيب الألمانى النفسى المعاصر لفرويد)، ثم ما أدخله عليها " بلويلر " Bleuler من فهم دينامى متأثرا في ذلك باكتشافات فرويد، أما فصول علم النفس المرضى (السيكوباثولوجى) التى تشملها كتب الطب النفسى والتى نقلته من مرحلته الوصفية البحتة إلى مرحلة " الفهم الدينامى " لأصول هذه الأمراض فإننا ندين بها لفرويد وحده.

يتضح إذن أنه عندما كان فرويد يدرس باحثا فى تشريح الجهاز العصبى ووظائفه، وعندما كان يدرس باحثا في أمراض هذا الجهاز، فقد كان يدرس علم النفس والطب النفسى وفقا لمبادئ مدرسة هلمهولتز السائدة آنذاك.

والواقع أنه عندما بدأ عمله في عيادته الخاصة كطبيب أخصائى في الأمراض العصبية وجد – مثله في ذلكم مثل جميع أطباء الأعصاب حتى يومنا هذا – أن غالبية مرضاه مصابون بما يطلق عليه الآن الأمراض النفسية، وانتبه فرويد – وفى هذا اختلف عن غيره من أطباء الأعصاب – فوجد أن ما اكتسبه من علم واسع لم يكن علما بالموضوع: أعنى النفس وأمراضها، فكان عليه أن يكتشف ذلك بنفسه من الألف إلى الياء، وعندى أن من أهم الأسباب في موقفه هذا هو الأمانة العلمية – الخلقية – في أسمى وأكمل معانيها،

فما أسهل أن يغمض الإنسان عينيه عن الحقيقة فيريح ويستريح وخاصة إذا كان ذلك هو السائد المألوف، وهاهو يكتب في خطابه لصديقه " فليس " بتاريخ ١٨٩٨/١٠/٢٣: " ... إنى هنا في عزلة تامة بل قد تخليت عن إلقاء محاضراتى هذا العام حتى لا أضطر إلى الحديث في أشياء لم أفهمها بعد ".

فرويد وإنسانية الإنسان:

ذكرت في مطلع هذا المقال أن طبيعة التحليل النفسي تقتضي أن يكون مكتشف هذا العلم فيلسوفا من حيث اتساع الأفق، فنانا من حيث دقة الحس، عالما من حيث أساليب البحث. على أن هذه الصفات جميعا، مهما بلغت من الكمال ما كانت تمكن صاحبها من اكتشاف أعمال النفس ما لم يوفق في تحقيق الشعار الفلسفي الأول، شعار " دلف " : اعرف نفسك. كان علي مكتشف التحليل النفسي أن ينجح فيما لم ينجح فيه الفلاسفة منذ سقراط، فيواجه نفسه، ويخوض غمار أعنف المعارك قاطبة : معركة اكتشاف الإنسان نفسه. ويعلم كل من درس مؤلفات فرويد أن خير ما أنتجه وأكثره أصالة هو كتابه " تفسير الأحلام " . ونعلم اليوم أن مادة هذا الكتاب لا تعدو أن تكون مقتطفات من أحلامه التي اتخذ تفسيرها سبيلا لتحليل نفسي أجراه علي نفسه، وأن تأليف هذا الكتاب سار جنبا إلى جنب مع تحليله نفسه، فهل هى محض المصادفة أن يخرج فرويد من معركة تحليله نفسه بأعظم أعماله وأكثرها خلودا؟ ولم لم يعرض أرسطو وقد ألف كتابين فى الأحلام وكتابا فى البويتيقا (الشعر) لعبارة سوفكليس التى أجراها على لسان يوكاستا والسابق ذكرها أعنى: " كم من فان قبلك ضاجع فى الحلم أمه ولكن يسهل عبء العيش لمن لم يلق إلى ذلك بالا ".

ولكن ما معنى قولنا معركة اكتشاف الإنسان نفسه؟ هل يجهل إذن الإنسان نفسه؟ وكيف يغيب عن سيد البيت بعض ما يدور فيه؟ إننا هنا إزاء قضية اللاشعور: قضية المجهلة

بوصفها مطلبا وسياجا كما سنفصل القول فى ذلك فى حينه.

وعلينا الآن أن ننظر في تطلعات فرويد وصفاته التى مكنته من أن يأتى بما لم يستطعه الأوائل.

كتب فرويد في أحد خطاباته لصديقه " فليس "آنفة الذكر، وكان إذ ذاك يخطو خطواته الأولى في الطب النفسى: " إنى أكاد أكون الوحيد هنا في جهادى في الكشف عن طبيعة المرض النفسى، ويعتبر الزملاء جهادى هذا نوعا من الهوس، ولكنى موقن أننى وقعت على سر من أعظم أسرار الطبيعة، إن الفارق بين تقدير الإنسان لإنتاجه الفكرى وتقدير الغير له فارق يكاد أحيانا أن يكون نوعا من الهزل، خذ مثلا كتابى عن الشلل الذى ألفته بأقل اهتمام وأقل مجهود ونفس تكاد تكون كارهة، ولقد لقى نجاحا كبيرا وأثنى عليه النقاد ثناء عظيما، وعبر الفرنسيون بخاصة عن عظيم تقديرهم له، أما الأشياء القيمة حقا مثل كتابى في الأفيزيا، أو المقال عن الأفكار المتسلطة الذى يوشك أن يظهر، أو الرسائل التى سأعالج فيها أصول الأمراض النفسية، ونظرية هذه الأمراض، فإنى لا أتوقع لها شيئا غير الفشل، إن ذلك يحيرنى ويملأ نفسى مرارة ".

يتضح إذن أن ميدان الأمراض العصبية العضوية لم يستهو فرويد بالرغم مما لاقته بحوثه في الميدان من نجاح وتقدير، ولا يستثنى من ذلك إلا موضوع الأفيزيا، لأن دراسة اضطرابات الوظيفة اللغوية أفسحت أمامه الطريق إلى مشكلة من المشاكل الكبرى ذات الطابع الإنسانى: مشكلة العلاقة بين الجسم والعقل، فضلا عن العلاقة بين العقل واللغة،وهو الموضوع الأساسى الذى يستغرق اهتمام الفلاسفة وعلماء اللنجو سطيقا المعاصرين، ومن أجل ذلك رأيناه في كتابه عن الأفيزيا يتوقد ذهنا ويظهر صفات الرائد التى ستتجلى بصورتها الكاملة فيما بعد.

أما موقفه من مشاكل الطب النفسى فالأمر فيها يختلف اختلافا كبيرا، فما كاد يخطو خطواته الأولى

في هذا الميدان، ويكشف عن العلاقة بين الأعراض النفسية والصراع النفسى ووظيفة الأعراض بوصفها " دفاعا " حتى أدرك لتوه أنه قد عثر في النهاية على طريق لابد أن يفضى إلى تحقيق مآربه المعرفية الواسعة وفطن إلى أنه قد اهتدى إلى ما يؤذن بالكشف عن بعض الحقائق الإنسانية الكبرى، وبعبارة أخرى، فلم يقتصر موقفه إذ ذاك على موقف الطبيب المصنف للأعراض، الباحث عن الأسباب من النوع المألوف إذ ذاك، والمؤدية إلى المرض بغية الوصول إلى مداواته، وإنما نفذت بصيرته إلى أبعد من ذلك، فتطلع إلى استخلاص النظرية العامة في الأمراض النفسية، وفوق ذلك تطلع إلى ما قد تلقيه هذه النظرية الشاملة من ضوء على طبيعة النفس - الإنسانية بعامة - على قدر الإنسان المصنوع بصنعه، فعلى حين كان الرأى السائد يعتبر الأمراض النفسية نوعا من الانحلال إن دل على شيء فإنما يدل على الزيغ والفوضى والاضطراب الخالص، نجد فرويد يستشف في تكوينها ما جعله يؤمن بأنها لا تعدو أن تكون لونا خاصا من ألوان الحياة النفسية، ومن ثم لابد أن تفضى دراستها إلى الكشف عن طبيعة الحياة النفسية قاطبة، بل فطن إلى أن منهج علم النفس المرضى هو أجدى المناهج في دراسة أعماق النفس، ونعلم اليوم صدق حدسه إذ ذاك، فقد تحققت على يديه فيما بعد قضية أن فحص أنماط السلوك المرضى يكشف لنا عن أنها شبيهة في بنيانها بالأسس الأولى في مراحل البنيان النفسى على نحو لا نجد له مثيلا في أنماط السلوك السوى لدى الراشد، حتى كادت دراسة حالات السواء تكون لا غناء فيها.

إن هذه القضايا أصبحت مألوفة لدينا حتى كدنا نغفل ما اقتضاه الوصول إليها من عمق فى التفكير وشمول فى النظر وقدرة على التمرد العقلى، ويكفى أن نذكر أن بعض النقاد يرفضون ما وصل إليه فرويد من نتائج فى علم النفس، ما دام قد اتخذ الحالات المرضية وسيلة فى البحث فى ميدان النفس بعامة، وهو نقد إن دل

على شيء فإنما يدل على أن فى هذه القضايا من العمق ما لا يتاح لكل إنسان أن يبلغه.

وإذا قرأنا رسائل فرويد إلى صديقه " فليس " وجدناه لا يكف عن الإشارة إلى شغفه الفلسفى وتطلعه إلى ما وراء الأهداف الطبية المباشرة، من مسائل معرفية واسعة تشمل الطبيعة الإنسانية بأسرها والأسرار التى تكتنف النفس شقية كانت أم هانئة، وإن علم النفس المرضى هو الطريق الأمثل إلى علم النفس السوى، ففى أحد الخطابات يقول: " إن رجلا مثلى لا يستطيع أن يعيش بغير هواية أخاذة بغير شغف متسلط، أو كما يقول " شيلر " بغير طاغية، لقد وجدت طاغيتى، وفى سبيله لا أقف عند حد أن طاغيتى هو علم النفس، وقد ظل علم النفس دائما هدفا لى يجتذبنى من بعيد، والآن وقد وقعت على الأمراض النفسية فقد اقتربت من هدفى كثيرا، وثمة غايتان تلحان على إلحاحا شديدا، أن أبحث نظرية الوظائف النفسية فى ضوء الاعتبارات الكمية، أى بوصفها ضربا من اقتصاديات الطاقة العصبية. والغاية الثانية أن أستخلص من علم النفس المرضى ما يصلح لعلم النفس السوى.

ومن الواضح أن الغاية الأولى تعكس ما انطبع فى نفسه من تعاليم مدرسة هلمهولتز، أما الغاية الثانية فهى تعبير عن طموحه المعرفى، وفى خطاب آخر يقول: " إنى أراك تستخدم الطب بوصفه طريقا غير مباشر للظفر بمثلك الأعلى الأول أعنى " التفسير الفسيولوجى للإنسان" على حين أنى أداعب الأمل سرا – باستخدام نفس الطريق – للظفر بهدفى الأسبق أعنى " الفلسفة " لأنها كانت مطمحى الأول قبل أن أعرف ما سيقتضيه مصيرى أن أنجزه فى هذا العالم ".

وفى خطاب لاحق بتاريخ ١٨٩٦/٤/٢ يزيد الأمر وضوحا إذ يقول: " كنت فى حداثتى لا أتطلع لشيء آخر غير المعرفة الفلسفية، والآن وقد تحولت من الطب إلى علم النفس أرانى فى سبيل تحقيق ما كنت أتطلع إليه ".

وغنى عن البيان أن ما يقصده فرويد بالفلسفة ليست مشاكل الميتافزيقا المألوفة لدى الفلاسفة السلفيين، ولا هى المنهج القياسى البحت، فقد كان يعلم أن ذلك كله قليل النفع فى الظفر بالمعرفة المجدية، ومن أجل ذلك فقد فرض على نفسه منهج البحث العلمى وأساليب الاستقراء التجريبى، وقد كشف التنقيب فى محفوظات كلية الطب بفيينا على أنه كان إلى ذلك دائب الحضور لمحاضرات الفليسوف " برنتانو " وخاصة دروسه فى قراءة نصوص أرسطو ونعلم أن الفليسوف " أدموند هوسرل " كان بين من قرأ فى تلك الحقبة على " برنتانو ".

ولكنه كف بعد ذلك عن قراءة الفلاسفة، وإذا استثنيا " فخنر " الذى أعجب به وتأثر ببعض اتجاهاته فقد امتنع فرويد متعمدا عن الاطلاع على الآثار الفلسفية.

إن الفلسفة التى يقصدها فرويد والتى نلمسها فى إنتاجه هى ما يصبو إليه " الذهن الفلسفى " من شمول ونفاذ وما يميزه من لهفة على المعرفة فى أوسع معانيها وأعمقها قدرة على التحليق فوق المعطيات المباشرة.

وبعبارة أخرى هى نوع الفلسفة التى يسمح محترف العلم لنفسه أن يزاولها، وهى بعد فلسفة إطارها إنسانية الإنسان بما هو إنسان، وهذا واضح فى قوله سابق الذكر " والآن وقد تحولت من الطب إلى علم النفس أرانى فى سبيل تحقيق ما كنت أتطلع إليه " على عكس صديقه " فليس " الذى كان يصبو إلى التفسير الفسيولوجى للإنسان أى الإنسان بما هو مجموعة من الوظائف الفسيولوجية.

وفضلا عن أن فرويد كان طلعة كما سبق بيانه، فقد كان موهوبا فى قدرته على الجدل العميق، ولكنه كان يفرض على قدرته هذه وميوله الفلسفية قيودا صارمة فلا يسمح لها بالانطلاق إلا بالقدر الذى يخوله له استقراء الوقائع، وقد أكد هذا المعنى مرارا فى بحوثه المنشورة، من ذلك

قوله: " لقد درجت على تقييد ميلى إلى الجدل واتباع نصيحة " شاركوه " التى لا أنساها، فأنظر إلى الشيء نفسه مرارا وتكرارا حتى يفصح عن معناه، وكذلك فى قوله فى تحليل حالة "دورا" المشهورة بعد أن بين أن الأمر ليس أمر جدل وإنما هو مما يخضع للملاحظة : " إننى لا أباهى بابتعادى عن الجدل غير أن الوقائع التى أقمت عليها فروضى قد جمعتها بعد إجراء ملاحظات عديدة اقتضت منى أشد الجهد وأدق الاستقصاء ".

وقد اكتشفت بين خطاباته إلى " فليس " وثيقة كتبها سنة ١٨٩٥ تقوم دليلا قاطعا على قدرته الفائقة على الجدل الفلسفى العميق، وهى عبارة عن رسالة فى نحو مائة صفحة حاول أن يضم فيها بنظرة واحدة شاملة علم النفس المرضى وعلم النفس العام وتشريح المخ وفسيولوجيته، ولما كانت هذه الرسالة لا تحمل عنوانا فقد أعطاها الناشرون عنوان " مشروع لسيكولوجيا علمية " واختصارا يشار إليها بلفظ "المشروع"

وليست قراءة هذه الرسالة بالأمر الهين، فإن عمق المنطق فيها، وتلاحق حلقات القياس يقتضى أشد الانتباه لفهمها، ومع ذلك فلم ينشر فرويد هذه الرسالة، على الرغم مما بذله فى إنشائها من جهد وما احتوته من عصارة تفكيره وخلاصة تجاربه، والسبب فى ذلك أن هذه الرسالة يرجح فيها المنهج القياسى على المنهج الاستقرائى للوقائع فجاءت فى كثير من جوانبها أقرب إلى الجدل الفلسفى منها إلى الرسائل العلمية، ويتضح من خطاباته أنه ما لبث أن نبذ هذه الرسالة واعتبرها نزوة عارضة، عاد بعدها إلى سابق عهده من التزام حدود الملاحظة واستقراء الوقائع.

ويجدر بنا أن نلخص القضايا الأساسية فى هذه الرسالة لأنها تتضمن مغزى تاريخيا يعيننا فى إدراك ما اقتضته نشأة التحليل النفسى من تطوير فى اتجاهات البحث وتعديل فى مفاهيمه، ومما يلفت النظر أن فرويد كتب هذه الرسالة بعد صدور الكتاب الأول فى التحليل النفسى أعنى

" دراسات فى الهستيريا " فكأنه بهذه الرسالة يرتد إلى الفسيولوجيا ومبادئ هلمهولتز ويتشبث بها بعد أن فتح عليه فى ميدان السيكولوجيا الحق: أعنى التفسير السيكولوجى مبرأ من زخرف الفسيولوجيا التى لا غناء فيها إذا كان الهدف هو التفسير الفاهم للإنسان بما هو إنسان، وبالإضافة إلى ذلك فإننا نعلم اليوم أن هذه الرسالة تكاد أن تكون الصياغة الفسيولوجية للفصل السيكولوجى الأخير من كتاب " تفسير الأحلام " وهو الفصل الذى يعتبر أكثر ما كتب فرويد عمقا وتجريدا، وأن صعوبة قراءته تذللها معرفتنا بهذه الرسالة، والتى تعتبر الجنين الذى يتخلق فيما بعد قضايا التحليل النفسى بأسرها.

مشروع لسيكولوجيا علمية:
(بين الفسيولوجيا والسيكولوجيا)

يستهل فرويد هذه الرسالة بقوله: " إن الهدف هو تصوير العمليات النفسية بوصفها حالات معينة كميا لجسيمات مادية يمكن تحديدها، وإن هذه الرسالة تتضمن فكرتين أساسيتين: الفكرة الأولى فحواها أن ما يميز بين النشاط والسكون هو الكم الخاضع للقوانين العامة للحركة، والفكرة الثانية هى أن الجسيمات المشار إليها هى الخلايا العصبية أعنى " النيورونات " يتضح إذن أن هدفه هو الجمع بين نظريتين فى مفهوم عام واحد، أى نظرية الخلية العصبية كما ألفها فى دراسته الهستولوجية سابقة الذكر، والنظرية الفيزيائية فى تفسير الوظائف العصبية وبالتالى الوظائف النفسية طبقا لتعاليم مدرسة هلمهولتز. وبعبارة أخرى أنها محاولة لتصوير وظائف الجهاز النفسى بوصفه منظمة من الخلايا العصبية ترجع عملياتها جميعا فى النهاية إلى تحولات كمية.

وهناك مصدران للكم المشار إليه: العالم الخارجى والجسم، وبذا يمكن للخلية العصبية أن تكون خالية أو مليئة بكم معلوم (وفى كتابه تفسير الأحلام الصادر سنة ١٩٠٠، عدل هذا المفهوم الفسيولوجى إلى مفهوم سيكولوجى: الأفكار المشحونة) أما

مفهوم الكم فهو مكافئ للتعبير الفسيولوجى " مجموعة التهييج " أو " حاصل التهييج " وكذلك فهو مكافئ لمفهوم الطاقة فى الفيزياء ويعتبر التهييج العصبى كمية فى حالة تدفق وأن هذا التدفق أو التيار من الكم يقاوم أو يسهل تبعا لحالة " فواصل التماس " (Synapses) بين الخلايا العصبية المختلفة.

ويشير فرويد فى هذا المشروع إلى أن وظائف الجهاز العصبى تخضع لمبدأين أساسيين:

أولهما: مبدأ القصور الذاتى، وفحواه أن طبيعة الخلايا العصبية تؤدى بها إلى التخلص من أى كم تحتويه (وهذا المفهوم سيتخذ فيما بعد صيغة سيكولوجية هى مبدأ اللذة- اللالذة من حيث إن خفض كمية التهييج يكافئ شعور اللذة وازدياده يكافئ شعور اللالذة) ، ويستند فرويد فى تقرير هذا المبدأ على مشاهداته الإكلينيكية فى الأمراض النفسية مثل الأفكار البالغة فى الشدة وكذلك التنبيه والإبدال والتفريغ وما إليها، ويعتقد أن هذه المشاهدات تخول له نقل ذلك إلى ميدان النشاط العصبى فى عبارات نيورولوجية حتى يوفر الأساس الموضوعى - فيما يرى - فى تفسير العمليات النفسية. ويقرر فرويد أن أبسط وأنقى صورة للمبدأ سابق الذكر فى الحيوان هى: الحركة المنعكسة حيث يتلو التهيج الحسى تفريغ حركى، ويمكن وصف هذا التفريغ بأنه الوظيفة الأولية للجهاز النيورونى (جهاز الخلايا العصبية) إذ إن أهم ما يحكم هذا الجهاز إنما هو التفريغ فى أى اتجاه، وتظهر وظيفة ثانوية حين تنتخب دروب للتفريق تضع نهاية للتنبيه، وهذا ما يمكن أن يطلق عليه " الفرار من التهيج ". أما ما يسبب انهيار الميكانيزم بحيث يتعين تعديله فهو عجزه عن التعامل مع التنبيه الداخلى (أى من الجسم) من حيث إنه لا سبيل إلى التفريغ ولا الفرار ولا مناص من إحداث تغيرات نوعية فى العالم الخارجى، كالحصول على الطعام مثلا، ونهذا الغرض لابد أن تحتفظ النيورونات باحتياطى معلوم متاح من

الكم، حيث لا يجدى تفريغها إلى الصفر.

أما المبدأ الثانى فهو "مبدأ الثبات" وهو مشتق من الفيزياء ومؤداه أن الجهاز العصبى يحاول أن يحافظ على إثبات شيء فى حالته الوظيفية يمكن أن يسمى " مجموع التهيج " وقد احتفظ فرويد بهذا المبدأ فى دراساته اللاحقة فى التحليل النفسى.

وعلى أساس هذين المبدأين يبنى فرويد نموذجا عمليا بالغ التعقيد للنفس بوصفها آلة نيورولوجية تكاد تعمل آليا من تلقاء نفسها.

وأول مشكلة يتصدى لتفسيرها هى مشكلة الذاكرة: أى كيف يمكن للنيورنات أن تستقبل انطباعات وتخزينها ثم تستقبل انطباعات جديدة، وهنا يميز فرويد بين فئتين من الخلايا العصبية (النيورونات): الفئة " فى " phi وهى تسمح بمرور تيار إثارة دون أن يلحقها أى تغيير، وتتعلق بمنبهات من العالم الخارجى ويمكن تعيينها بما هى نوى الأعصاب الموردة للتنبيه الحسى. والفئة الثانية " بى " وهى تحتفظ بآثار دائمة لأى سبب تنبيه يؤثر فيها، وهى الخلايا العصبية للمخ بالمعنى الدقيق وتوظف أساسا للمنبهات ذات المصدر الداخلى.

وهاتان الفئتان متضايفتان، وأولاهما تختص بظواهر الإدراك الحسى ويسهل النفاذ فيها، والثانية الخاصة بالذاكرة أدنى قابلية للنفاذ فيها (وهو مفهوم استعان به فرويد فيما بعد فى تصوير الجهاز النفسى فى تعبيرات سيكولوجية)، وينحصر الفرق فى قابلية النفاذ فى فواصل التماس (Synapses) بين النيورونات وهى تختلف فى الخلايا المختلفة على نوع الخلية بل على الكم المنبعث من مصدرين مختلفين: هما العالم الخارجى فى الفئة " فى " وخلايا الجسم فى الفئة " بى " كما سبق القول.

وثمة ما يمكن أن يعطل هذه الآلة النيورولوجية وهو الألم الجسمى، فلا توجد فواصل تماس بوسعها صد الإثارات المؤلمة، ومن ثم فإن الفرار من الألم ميل أساسى فى طبيعة الجهاز

العصبى، وإن ذكر الموضوع المؤلم الذى أحدث الألم يبعث مشاعر اللذة، وهذا التصوير - تعطل الفواصل عن عملها إزاء الألم - جعل فرويد يربط فيما بعد بينها وبين أهمية دور الصدمة فى علم النفس المرضى، وكذلك بينها وبين نظرية الفزع وقيام الحصر (القلق) بوصفه إشارة إنذار.

ولتفسير كيفية الشعور يقدم فرويد فئة ثالثة من النيورونات هى " أوميجا " Omega وهى وسط بين الفئتين السابقتين، ووظيفتها تحويل الكم إلى كيف، وليس الشعور مجرد ذيل للعمليات الفسيولوجية النفسية، ولا هو الجانب الذاتى لكل العمليات النفسية، بل لجزء منها، أعنى عمليات الإدراك الحسى، ومن ثم فإن الجهاز يكون مختلفا عند غياب الشعور وعندئذ لا تسهم خلايا " الأوميجا " فى عمليات الجهاز.

وإذا كانت نيورونات " سى " من داخل الجسم، فإن فرويد يميز بين نوعين من نيورونات " سى " وهى نيورونات قشرية ونيورونات نووية، وتنبيه النوع الأخير بفعل العمليات الغريزية يتبدل فى صورة إرادة وهو يوفر القوة المحركة للآلة كلها، ويقتضى نشاطا ما فى العالم الخارجى، كأن يستصرخ الطفل شخصا آخر للعون وهو منهج معقد لتفريغ التوتر الداخلى، وبدأ يأخذ طريق التفريغ المذكور كما يقول فرويد الوظيفة الثانوية العظيمة الأهمية أعنى تأسيس الاتصال الإنسانى، وإنما عجز بنى الإنسان فى باكورة حياتهم هو المصدر الأصلى لكل البواعث الأخلاقية وهذه القضية يستخدمها فرويد فيما بعد لتفسير التحول من مبدأ اللذة إلى مبدأ الواقع.

و" الأنا " تنظيم من النيورونات المشحونة باحتياطى ثابت من الكم، وبينها اتصال حر. ومن وظائفه الأساسية قدرته على كف التنبيهات الداخلية يتحول جزء منها إلى شحنات جانبية أى نيورونات مشحونة متصلة بالتواقت بأول نيورون ينبه، وهى متاحة دائما.

ثم يميز فرويد بين " العمليات الأولية " و " العمليات الثانوية " من حيث سير التفريغ، ويرى إرنست جونز أن هذه التفرقة بين العمليات الأولية والعمليات الثانوية قد تكون أهم إسهامات فرويد فى ميدان علم النفس وعلم النفس المرضى، وقد عاد فرويد فيما بعد مرات عديدة إلى تفضيل القول عن هذين النوعين من العمليات بقصد نقلها إلى المستوى السيكولوجى، وأهم موضع فصل فيه القول فى ذلك هو الفصل الأخير (السابع) من كتابه تفسير الأحلام.

ويمضى فرويد فيقول إنه يمكن أن يعانى " الجهاز " مشقة على نحوين: فحين تطالب رغبة بالإشباع يمكن للتهيج بعد تنبيه الصور الذكورية للموضوع المشبع، أن يتحول إلى نيورونات " أوميجا " باعثا هلوسة لا عناء فيها بيولوجيا، ولابد من دليل للتمييز بين هذه الإشباعات الهلوسية والإدراك الحسى للموضوع الحقيقى، ولا غنى بالمثل عن معيار الواقع فى الحالة الثانية أى حالة ذاكرة معادية مرتبطة بالألم، وحين يوجد هذا المعيار يمكن أن يحدث هرب دفاعى، وإلا أثار التهيج جميع مشاعر اللذة.

وتوفر قوة الأنا " الكافة " التى تكف معيار الواقع فلا يمكن للمنبهات المنبعثة من داخل الجسم أن تثير الفرق الكيفى المميز للواقع الخارجى إلا إذا كانت قوية، ولا سبيل لها إطلاقا إلى ذلك حين تخضع لكف الأنا، ولكن بوسع التهيج الحادث فى نيورونات " فى " المنبعثة من المنبهات الخارجية أن تبعث الفرق الكيفى مهما كانت ضعيفة، ولكن ما ينبئ نيورونات " سى " حقا بأن هناك منبهات من العالم الخارجى الواقعى فهو تهييج من ميكانيزم التفريغ الحركى يعمل دائما إلى حد ما، وحتى بالنسبة إلى الفكر، فإن ثمة فعلا لا إراديا طفيفا للعضلات المختصة بالنطق.

وبذا تكون العملية الأولية عملية غير مكفوفة وتسير فى تيار حر التدفق والعمليات الثانوية التى تميز بين منبه خارجى وآخر داخلى، عملية كافة، ومن ثم يكون مستوى كمها

أدنى، ونجد فى الحلم أنقى مثال للعملية الأولية، حيث يستغنى نقصان الحاجات الجسمية أثناء النوم عن وظيفة الأنا الثانوية.

ويعتبر فرويد – وهذه قضية أساسية فى الموضوع كله – السعى فى سبيل الإشباع أو تحقيق الرغبة هو القوة المحركة الأساسية للجهاز المذكور، ويمضى فيحلل فى إطار فسيولوجى ما يمكن أن يفترض حدوثه فى مختلف المجاميع النيورونية وفيما بينها أثناء عمليات الحكم، والتعرف والتمييز والتذكر والتفكير وكلها طرائق معقدة لمباشرة المسعى السابق ذكره فالمسعى حين تنشأ الرغبة هو الباعث البيولوجى لكل عملية فكرية.

وفى الجزء الثانى من المشروع الذى يعالج فيه فرويد مشاكل علم النفس المرضى تراه يفرق بين " دفاع أولى " إزاء الألم من ناحية، ومن ناحية أخرى بينه وبين " الكبت " وهو استبعاده من عمليات التفكير – لفكرة من شأنها أن تثير مشاعر اللذة فى الأنا، على أن يكون دائما مصدر الفكرة دفعة جنسية، وإن ما يميز هذه الخاصة الأخيرة هو أن انبعاث الوجدان يحدث فى صلته بالذكرى لا بالفعل الجنسى نفسه، ولم يستطع فرويد أثناء عمله فى هذه الرسالة أن يحل لغز عملية الكبت على أنه نجح مع ذلك فى بيان إعاقة التفكير بتأثير الوجدانات، إعاقة من شأنها إتاحة الفرصة للانتقال إلى العمليات الأولية.

وفى الجزء الثالث من المشروع يطبق فرويد المبادئ العامة السابقة على عمل العقل السوى ككل، فيصف كيف تستجيب نيورونات الأنا لمنبه خارجى، بصورة سلبية فحسب بل بصورة إيجابية أيضا بتوجيه شحنة من الطاقة إلى نيورونات " أوميجا " ويحدث هذا بخاصة فى حال الشعور ويستثمر الأنا أى عنصر إدراكى حسى يحمل علامة الواقع أى يدل على مصدر فى العالم الخارجى.

ويفسر أصل الأنا وهو أكثر المشاكل غموضا بتفاعل خاص بين النيورونات النووية (التى تغذيها

منبهات جسمية) وعملية إشباع رغبة، وحين يحدث هذا تصاغ ارتباطات فى الأنا بين الصورة الإدراكية الحسية للموضوع المشبع والمعلومات المستقاة من النشاط الحركى التى تجعل ذلك الموضوع قريب المنال، إلا أن هذا الأنا البدائى لابد أن يتعلم بالتجربة ألا يستثمر هذه الصورة الحركية قبل استيفاء شروط معينة بصدد الإدراك الحسى، أى قبل إدراك اختبار للواقع، كما يتعين عليه ألا يسمح باستثمار فكرة الرغبة فيما جاوز حدا معلوما وإلا نكص إلى الإشباع الهلوسى الأسبق، فإن اقترف أيا من الخطأين لما نال أى إشباع حقيقى ولأضحى الموقف باعثا على اللذة، وذلك هو التهديد المفضى إلى نماء الأنا ورقيه وتظل اللذة (الألم) الوسيلة الوحيدة للتربية.

فى الإبداع والعبقرية:

يجمع المشتغلون بعلم النفس الأكاديمى على أن الإبداع فى مختلف ميادينه يتصف صاحبه بالسمات التى نلخصها فيما يأتى:

أن للقدرات الإبداعية ثلاثة مظاهر أساسية فى النشاط العقلى.

أولا: مظهر استقبالى أعنى القدرة على الإحساس بالمشكلات.

ثانيا: مظهر إنتاجى يتمثل فى:

أ- القدرة على الطلاقة: طلاقة الكلمات، طلاقة التداعى فى المعانى، الطلاقة التعبيرية.

ب- القدرة على المرونة.

ج- القدرة الإنتاجية التى تتصف بالأصالة.

ثالثا: مظهر نقدى أو تقويمى:

على أن هذا الذى يقرره علماء النفس الأخصائيون فى القياس النفسى (السيكومترى) لا يقتصر على الإبداع العبقرى وإنما يشمل المبدعين ذوى المواهب (Talents) كما أنه لا يوضح لنا ما يتميز به الإبداع العبقرى، وما يقتضيه من خلفية ذهنية تكاد تمتنع على وصف طبيعتها كما يتضح من تعريف " الموسوعة البريطانية إذ تقرر: أنها أعلى ما يمكن تصوره من قدرة فى الأصالة فهى شيء خارق تماما ويتخطى أعلى

البـــراعة الفائقة المرتبطة بالتدريب أو التعليم ".

والحق فى الإبداع العبقرى مذهل يشده وهو ما يستثير الإعجاب الفائق بالخلـــق العبقـــرى لمـــا يتضمنه من مباغتة تتكرر مهما تعدد النظر إلى هذا الخلـــق، ذلك أن ما يفرق بين الموهبة والعبقـــرية يمكـــن أن يـــصاغ فى أن الموهـــبة يمتلكها الإنسان أما العبقرية فهى التى تمتلك الإنسان.

وإذ كـــان تقدم المعرفة كما يقول الفليسوف الفرنسى باشلارد " إنما هى نـــضال بـــين المألوف وغير المألوف، وإن اكتشاف الجديد يقتضى كما يقول " هيرقليطس " أن نتوقع ما لا ينتظر " فـــإن هاتـــين القـــضيتين تصلان فى الإبـــداع العبقـــرى إلى مستوى الثورة الكوبرنيقية، على أن العبقرية فى حالة فرويد تتصف بما لا تتصف به فى أى مـــيدان آخـــر غيـــر ميدان النفاذ إلى أعمـــاق الـــنفس، ذلـــك أن النفاذ إلى أعمـــاق النفس يصطدم ليس فقط بأن الإنـــسان لا ينطـــبق على نفسه – كما أســـفرت عـــن ذلـــك كشوف التحليل النفسى بحيث وضح " إن الإنسان ليس ما هو، وهو أيضا ما ليس هو " بل إن ذلك كله يرجع فى نهاية الأمر إلى أن الإنسان بفطرته لا يطلب المعرفة وإنما يطلـــب المجهلة ويتشبث بها بالقياس إلـــى نفـــسه دون أن يـــدرى قوة هذا المطلـــب، لا ولا حتـــى وجـــود هـــذا المطلـــب، إنـــك قـــد تـــباغت الإنسان باكتـــشاف نظرية النسبية أو باكتشاف عـــالم الذرة فى ميدان الفيزياء، ولكنك لا تـــباغت الإنـــسان فقط بل قد تفجعه وتـــصدمه صـــدمة تهز كيانه وذاتيته باكتشاف عقدة أوديب، إننا وصلنا فى مـــيدان التحلـــيل النفسى إلى " أن فى الجنون عقلا " وأصبحت عبارة باسكال المـــشهورة تجـــرى الآن بهـــا الأقلام ونفهمهـــا علـــى نحـــو لم نكن ندركه عندما أطلقها باسكال وأعنى بها " إن الإنـــسان مجـــنون بالـــضرورة حتى ليـــصبح مجـــنونا على نحو آخر من الجنون إذا لم يكن مجنونا ".

وإنهـــا لحقيقة جديرة بالتأمل فيما يخـــتص بتفـــسير الأحـــلام الإنسانية بأسرها، شعوبها ورواد الفكر فيها منذ

فجر تاريخ المعرفة- بل منذ فجر التاريخ كما يدلنا على ذلك ما جاء فى القرآن والكتاب المقدس عن قصة يوسف وما حاوله المعلم الأول أرسطو عندما أفرد مؤلفين لموضوع الأحلام، وعندما أنشأ أبو الطب هيبوقراط فصلا عن العلاقة بين الأحلام والأمراض فى كتابه الذى وصل إلينا، ثم يظل تفسير الأحلام مع ذلك دون حل حاسم حتى يناهز القرن التاسع عشر نهايته ويظهر سيجموند (فى الطبعة الثالثة من الترجمة الإنجليزية لكتابه Traumdentung تفسير الأحلام) "أن مثل هذا الحدس لا يأتى العمر مرتين " بل كان ينبغى القول إنه لا يأتى إلا مرة فى قرون كما كتبت فى تصديرى، غير أننا عندما نتبين ما فى الحلم من سمات على آثار قديمة ترجع إلى عهود غابرة من تاريخ الإنسانية، ومنطقا غريبا نابيا لا نعهده فى يقظتنا، وأسلوبا فى الخيال والتعبير شديد الشبه بأسلوب الأساطير وعقائد المجتمعات القليلة الحظ من الحضارة ينفتح الحلم لنا نافذة تطل على أعماق النفس يترامى البصر منها إلى آفاق لا عهد لنا بها، فضلا عن أن الحلم يجمع فى أفق واحد بين العقل والجنون من حيث إن الحلم خبرة من خبرات الإنسان الصحيح العقل، ولكن طبيعته الهلوسية لا تختلف عن هلوسة المجنون، بحيث كان الكشف عن طبيعة الحلم وما يتضمن من معان ولغة لها نحوها وبلاغتها الخاصة بها إنما هو الكشف عن طبيعة العقل والجنون جميعا: طبيعة الإنسان.

على أن اكتشاف تفسير الأحلام ما كان يتم بغير كشف سابق عليه أراه أعظم كشف فى ميدان علوم الإنسان وأعنى به منهج " التداعى الحر " ذكرت فى الفصل السابق أن فرويد ما كاد يخطو خطواته الأولى فى العلاج النفسى كما نشر فى مقاله الأول فى الموضوع بالاشتراك مع يوزيف برويير فى " المكنزم النفسى للظاهرات الهيسترية " (١٨٩٣)، ثم فى كتاب " دراسات فى الهيستريا " حتى رأيناه يرتد على أعقابه ويكتب فى حماس وانفعال المشروع سابق الذكر والذى

عاد فيه إلى التشبث بمفاهيم الفسيولوجيا، يربط بينها وبين ما حققه من كشف فى المستوى السيكولوجي بصدد نشأة الأعراض الهستيرية، وكأن هذا الربط يقتضيه الموقف العلمى طبقا لتعاليم مدرسة هلمهولتز التى نشا فى أحضانها، إلا أنه ما لبث أن طرح هذا الاتجاه لإحساسه بأن هذه المحاولة الارتدادية زيف من حيث عقم المفاهيم الفسيولوجية فى تفسير المستوى السيكولوجى، بل إن إقحام المفاهيم الفسيولوجية فى تفسير قدر الإنسان المصنوع بصنعه أى فى تفسير حول النفس إنما يهدر المبدأ المنطقى المعروف أعنى " مبدأ السبب الكافى " فلا يستطيع أى كشف فى المستوى الفسيولوجى أن يفسر لنا عرضا عصابيا أو ذهانيا من حيث إن كلا من العرض العصابى والعرض الذهانى يحمل معنى لا وجود له فى المستوى الفسيولوجى، ومن أجل ذلك فقد امتنع فرويد عن نشر هذا المشروع وظل قابعا فى أوراق اكتشفت بعد وفاته، حقا إننا نرى قضايا هذا المشروع تظهر فى الفصل السابع من كتاب تفسير الأحلام ولكن بعد وضعها جميعا فى المستوى السيكولوجى.

استأنف فرويد بحوثه فى الهيستريا فكان أن انتقل من مرحلة التنويم الصناعى (المغناطيسى) وعملية التطهير (Catharsis) وذلك لما يكتنف المريض التنويم من نقائض ومثالب، انتقل إلى مرحلة دعوة المريض إلى التركيز على ما يأتى من خواطر بصدد عرض بعينه، ثم انتقل بعد ذلك إلى مرحلة التداعى الحر، ولكن كيف تم له ذلك، بل إن السؤال كيف قبل فرويد أن ينتقل بمرضاه من أسلوب تسلسل الخواطر فى منطق يرتضيه العقل إلى أسلوب الخواطر تتلاحق فى غير منطق يربط بينها وبلا هدف تسعى إليه. إننا فى هذا الموضع من مقالنا نقف مشدوهين أمام أعظم حدس فى تاريخ علوم الإنسان، كيف استطاع فرويد أن يصبر ويسكت إزاء هذا الجولان والزوغان والتوه فى الحديث والخروج عن الموضوع، إن

الأمـــر هنا بصدد " التداعى الحر " أمر بالغ الخطورة، إن التنشئة فى الطفولة تـــستهدف بلـــوغ التفكيـــر المتـــرابط مـــنطقه، فمـــا ينبغى أن يكون النطق مجافـــيا للمـــنطق، وبعبارة قصيرة أن حـــدس خطورة التداعى الحر بوصفه مفتاح ما استغلق علينا قرونا إنما هو فـــيما أرى قمة عبقرية فرويد، أليس هـــو الفطـــنة بمـــا فى اللا منطق من مـــنطق: مـــنطق يصل بنا إلى أعمق أعماق النفس وتزداد قوة ما ينالنا من مباغتة ودهشة عندما نتبين فيما كتبه فـــرويد خاصـــة فى الفصل الأخير من " الدراســـات فى الهيستريا " إنه فطن من ناحية أخرى إلى أن مرضاه عندما يـــتحدثون بأســـلوب التداعـــى الحـــر يفحمـــون لا شـــعوريا فى حديثهم من الخواطـــر ما لا يجدى فى الكشف عن المحـــتوى الـــلا شعورى، وإنما تقوم بوظيفة " المقاومة " ضد هذا الكشف، بـــل فطن إلى أكثر من ذلك: فطن إلى ظاهـــــرة الـــــتحويل أو الطـــــرح (Transference) وما فيها من نفع مـــن حيث ما تتضمنه من الكشف عن بعـــض المحـــتوى اللاشعورى، ومن ناحـــية أخرى ما تقوم به هذه الظاهرة أعنـــى وظـــيفة المقاومـــة فى فترات بعينها، إن فى هذا الحشد من الحدس والفطـــنة بهـــذه الحقائق المتباينة فى طـــريق ليس فيه ما يهدى إلى النافع وغير النافع، يذهلنا من حيث إنه يبدو لـــنا تخـــبطا وعشوائية ومع ذلك فهو الطريق إلى أعماق النفس وخاصة إذا طبق منهج التداعى الحر على ما يأتى به المرضى من أحلام.

بقـــى - لكى نتوج هذه المناقشة فـــى عبقـــرية فرويد - أن نشير إلى إنجاز فرويد فى تاريخ المعرفة بأسرها وخاصـــة تاريخ معرفة الإنسان بنفسه وأعنى به قيامه بتحليل نفسه فاتكشفت لـــه قـــارة بأسرها من الحياة النفسية للإنسان لم يرتدها أحد من قبله.

ســـبق القـــول إن تاريخ المعرفة سلسلة من النضال بين المألوف وغير المألـــوف، فـــنحن لا نفطـــن لمعارف جديدة دون جهاد ضد معارف سابقة، ويصدق ذلك أكثر ما يصدق على العلم بأحوال النفس، لأن إدراك الجديد عنها

تقـويض لألفتـنا بها حتى نكاد نمسى غـرباء عـن أنفـسنا، بـل إن هذا الاغتـراب يفقدنا الطمأنينة ويذيع فى الـنفس إشـفاقا يهز الكيان، فتدعونا فطرتنا إلى الإنكار والاستنكار.

لقـد فطـن فرويد إلى أن مقاومة الكشف عن أعماق النفس لا تأتيه من مرضـاه فحسب وإنما تأتيه أيضا من نفـسه، فكـان أن صمم على أن يزيل هـذه العقـبات الأخيـرة حتـى يظفر بالحقيقة كاملة.

كان على فرويد بعد أن اكتشف أن نظـريته فى تعليل الهيستريا بوصفها اسـتجماع الذكـر لا شعوريا لغواية جنـسية فى الطفولة إنما هى من قبيل التخيل فانصرف عنها فإذا هو يقف فى ظـلام دامـس ويجد نفسه فجأة وقد أوصـدت أبواب الفهم أمامه مهما بذل من جهد ، ولكنه- كما سبق القول - فطن إلى أن تعطيل قدرته على البحث متصل بأسباب تأتيه من أعماق نفسه، أى مـن مقاومـة عنيدة تحول دونه والاستبصار. وبعبارة أخرى فقد أيقن أن الشرط الأساسى لكى يفهم الإنسان غيـره من الناس فهما صحيحا هو أن يـبدأ بفهـم نفسه ويزيل الستار الذى يحـول دون إدراك النفس لكنهها ولا مفـر من ذلك، فغض الطرف عما فى النفس غض له عما فى غيرها ولذلك فقـد عقـد العزم على أن يجرى على نفسه تحليلا منهجيا متخذا من أحلامه مـادة هـذا التحليل، وقام فرويد بهذا النضال المرير وحده مخترقا مقاوماته يوما بعد يوم.

ونجد فى رسائل فرويد إلى صديقه " فليس " شاهدا على صراع جبار، فها هـو يكتب لصديقه: " ما كنت أتصور يـوما شيئا يشبه ما ينتابنى الآن من شـلل عقلـى وإن فى كتابة كل سطر لعـذاب، وهاأنت تستأنف عملك موفقا علـى حين أنى أرهف السمع والبصر فـلا أسمع ولا أرى شيئا، لقد عانيت أخيـرا مـا يـشبه الأزمـة النفسية، تـصحبها حالات لا أدرك كنهها، وكأن ذهنى ملبد بالسحب ويخـالجنى شك

مستتر، وقلما ألمح بصيصا من الضوء هاهنا أو هناك، وأعتقد أنى فى حالة كحالة الشرنقة ولا يعلم إلا الله أى وحش سيدلف منها ".

يتضح من العبارة الأخيرة أنه مشفق مما لابد أن يتمخض عنه بحثه فى طبيعة الظاهرة النفسية من استبصار، بما يدور فى داخل نفسه، بل قد فطن إلى أن ثمة علاقة بين تعطل قدرته على البحث وما حركه هذا البحث فى نفسه من انفعالات وصراعات دفينة تنذر بالطوفان، ويتأكد شعوره بذلك فى خطابه التالى (١٨٩٧/٧/٧) إذ يقول: " ما زلت لا أدرك ما يدور فى نفسى إن ثمة شيئا فى أعمق أعماق أزمتى النفسية يحول دون تقدمى فى فهم الأمراض النفسية ".

ثم هاهو يعلن لصديقه قائلا: " إن المريض الرئيسى الذى يشغلنى حاليا هو نفسى، وإن هذا التحليل (الذى أجريه على نفسى) لهو أصعب من أى تحليل آخر، وإلى ذلك يرجع السبب أيضا فى تعطيل قدرتى على كتابة ما اكتشفه وإذاعته ".

إن أى محلل نفسى يقرأ تحليل فرويد لنفسه كما وردت فى خطاباته آنفة الذكر لا يسعه إلا أن يقف مبهورا، فها هو يشير فى خطاباته التالية إلى الصراع العنيف القائم بين رغبته فى الاستبصار ورغبته عنه فيقول: " إن التحليل الذى أجريه على نفسى إنما هو أهم ما أقوم به الآن، وإنى أتوقع أن أصيب منه فائدة عظيمة عند إنجازه، وعندما بلغت منتصف الطريق منه انقطع حبله فجأة وأحسست كأن وثاقا داخليا يقيدنى، ذلك الوثاق الذى يشكو منه مرضاى أعظم الشكوى، وقد امتنع على السلوان، ليس فى وسعى إلا أن أزحف وأصبر حتى يأتينى الحلم التالى بشيء من الضياء، إن تحليل الإنسان لنفسه يكاد يكون أمرا مستحيلا فالقوى المعارضة شديدة البأس ".

إن عبقرية فرويد تنفرد بصفة تضاف إلى الصفات السابق ذكرها أعنى موهبة الحدس الفنى الذى

يقتـــضى " التعطـــيل الإرادى للريبة " والانفتاح الفلسفى فى مذهب النظر إلى الإنسان بما هو إنسان ثم إخضاع ذلك كله إلى المنهج العلمى فى الاستقصاء أقـــول تنفرد عبقريته عن غيرها مما نـــراه لـــدى غيره من العباقرة، تنفرد بنوع من البطولة التى تصمد أمام أى نوع من الخوف طلبا للظفر بالحقيقة، فهـــى بطولة واجهت الانهيار النفسى لذات الباحث فلم تحجم، وأصرت على المـــضى فى الطريق مهما كلفها ذلك، إنهـــا بطـــولة مـــن نوع فريد: بطولة عبقرية ترتفع إلى ذروة الأمانة العلمية – الأخلاقية.

المراجع:

١- فـــرويد، حياتى والتحليل النفسى. ترجمة مصطفى زيور وعبد المنعم المليجى، دار المعارف بمصر.

٢- فرويد، تفسير الأحلام، دار المعارف بمصر، ترجمة صفوان ومراجعة مصطفى زيور.

٣- فرويد، ما فوق المبدأ اللذة، دار المعارف بمصر، ترجمة إسحاق رمزى.

4- Freud. S. Collected papers. V 01. V, p. 208 London.

5- Bernfeld, S.: Freud's Earliest Pheories and The School of Ielmholt. The Psyehoanalytic Quarterly. Vol. XIII, pp. 341-62.

6- Ernest lones. op. cit.

7- I., Abstracts of the Scientific Writings of Dr. S. Freud 1877-1897. in The Standard Edition Vol. III London pp. 227-235.

8- On the Spinal Ganglia and the Spinal Lord of Petromyzen. p. 228.

9- Ernest lones. op. cit, p. 58.

10- Bernfeld. Sigmond Freud. M.D. international Journal of Psychoanalysis. 1951. p. 204-217.

11- Revue neurologique. 1933, 1,643.

12- Sch. Archive. F. Neurologie und Psychiatrie 1936, XXXVI, 205.

13- Cerebral Depligias

14- The Standard Edition. London. Vol III. 225-235.

15- The Origins of Psychoanalysis. London. Imago 1954. p: 269.

16- Origins' of Pschoanalysis. op. cit, p. 83.

17- op. cit. p. 119.

18- op.cit.p.144.

19- op. cit. p. 162.

20- History of the Psychoanalytic mouvement Standard Edition. Vol. XIV. p. 22.

21- Standard Edition. op. cit. V oL VII p. 113.

22- Standard Edition. op. dt. Vol. I. pp.295-397.

23- Origins. op. cit. p.210.

24- ibid. p. 211.

25- ibid. p. 213.

26- ibid. p. 221.